الاب اسحق ارملة السرياني

١٨٧٩ - ١٩٥٤

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

في شهر شباط الفائت توارى وجه المستشرق الكبير حبيب زيات تاركاً وراءه فراغاً عظيماً في دراسات تاريخ الشرق المسيحي الاسلامي . وفي ايلول من هذه السنة نفسها وارى الثرى عالماً اخر تاركاً بعده ثلمة كبرى في دراسات الادب والتاريخ السرياني ، الا وهو المرحوم الاب اسحق ارملة الذي ما برحت ابتسامته منطبعة في ذاكرة الذين عرفوه وغرفوا من بحر علمه الزاخر وكان ذلك العلامة يقوم بخدماته صامتاً ولفظ انفاسه ذات صبح من اصباح ايلول وكان وحده مع ربه الذي دافع عنه بجرأة وحزم كما سيرّ بنا .

ومما تميز به الاب ارملة في اثناء اضطلاعه بوظيفته الكهنوتية ذلك الوجدان وتلك اليقظة المستمرة لكهنوته . فانه كان كاهناً طوال ايام مهنته . ولقد رسخته بحوثه التي قام بها في ذلك الوجدان بدلاً من ان تقصيه عنه .

وان انسَ فلن انسى زيارتي له وهو على سرير مرضه تمضه اشد الاوجاع ومع ذلك كانت سمات الارتياح والاطمئنان بادية على محيّاه الذي لم ينتزع طلاقته منتزع لانه كان يحيا في ابدية الانسان الذي خدم ربه باستقامة وبدون تهاون وانتظر شاهدته التي لا نهاية لها .

٥

لئن تصفّحنا فهرست ما كتبه الاب ارملة لاستولت علينا الدهشة للعمل العظيم الذي جاء به ذلك العلّامة الصامت الرزين . واذ كان مؤرخاً لامته ولبعض الاسر والاشخاص الذين اشتهروا بعلمهم وحسن سلوكهم وفضلهم على الامة السريانية ، واذ كان لاهوتياً بارعاً وعالماً لغوياً لم يستعصِ عليه حلّ مشكلة عويصة بدون ان يجد لها حلّا يذلّل صعوبتها في لغته السريانية ، واذ كان عالماً يوضح صحة العقائد الدينية ، واذ كان محامياً عن الحقيقة مخلصاً فقد اظهر في جميع ميادين اعماله العلمية هذه مقدرة لا تفاوت فيها ، ولقد اتصل بي أنه كان يحسن الكتابة بكلتا يديه ، فرأيت في هذه السهولة رمزاً الى انشغافه بالتأليف

ورمزاً ليضع في خدمة الحقيقة تامه وعلمه لانه رأى ان اليد الواحدة لا تكفيه وحدها لذلك . . .

وما اكثر ما خطه يراع المرحوم الاب ارملة. اما اذا المحت الى ما نشره في المشرق فلا يسعني الا ان امتدح، فضلاً عن تعدد موضوعاته، المقدرة التي كان يقبض بها على ناصيتها قبضاً كان اذا عالج منه احدها فصل في خطته لمحدثه . اما اذا رأيناه يكثر من الاستناد الى الاستشهاد ولا سيما الاستشهاد ، المستمد من المصادر السريانية، فلانه كان واثقاً بان الخطى التي كان يخطوها مؤدية به الى الحقيقة التي نذر نفسه ان يكون خادمها الامين .

وكتابات الاب ارملة التي يسودها الروح التاريخية كان لا يُبدي فيها رأياً بدون ان يسنده الى الشواهد ويرجعه الى المصادر التي عرف منها بموجب طريقته الدقيقة التي يقتضيها التاريخ .

وما عدا هذه المقالات التي اتحدث عنها ثمة غيرها في مستوى جمهور اكبر لان الاب ارملة كان يريد ابلاغ الحقيقة التي استهوته وتعطش اليها . اما مؤلفاته التي تعد مآثر حقيقية ومفخرة للامة السريانية التي خدمها بتجرد واخلاص فاني لا اود الامام الا الى اثنين منها كانا ايضاحين لمنهجه يكفيان للحكم له او عليه ، وهما تاريخ دير الشرفة وعقيدة الرياسة البابوية بحسب اقوال المؤلفين السريان. اما طريقته فانه لم يكن يحب الاسهاب في التوسع النظري بل كان يقدس الواقع والضبط في التفصيل والمعنى اللذين يعاشيان الزمان والمكان .

ولئن اوضح الاب ارملة العقائد الدينية فاننا لنشعر به انه اصبح في المناضلة عن تلك العقائد رجلاً غير ما هو عليه عادة، ولاسيما عندما يناضل عن الدين القويم ضد بعض تهجمات اليعقوبيين . وانني اود ان اتحدث خاصة عن مؤلفه « كتاب الرحمة » الذي خاصم فيه ذلك الذي كان له ان يصبح يوماً رئيس طائفة السريان الارثوذكس، غبطة البطريرك برصوم ، فناقشه الحساب .

وان اذكر فاني لذاكر تلك الحملة الشعواء بصدد زنّار المذراء في جريدة البيرق البيروتية . ولم تكن حملة بدون اساس . فكان يطيب للاب ارملة ان يلاحق خصمه حتى في عقر داره محاولاً ان يحمله على مناقضة نفسه بنفسه وان يبيّن له النصوص التي لم يحسن قراءتها والذرائع التي فسّرها تفسيراً

خاطئاً . مما لفته فكنا نحسها من الموضوع الذي كان يعالجه، فهي واضحة في بيانه وتركيبه بحت لتصبح شديدة الاسر وحتى حادة اللهجة في الخصام . وانه لم يخرج قط عن حدود اللياقة في كتاباته . ولذلك كان لا بد لكل خصم من التفكير الطويل قبل ان يقيس نفسه بذلك العالم الوضيع الذي كان ينشب كالاسد للقتال وللذود عن العلم الصحيح والعقيدة الصادقة .

ومن الاسباب التي مكنت للاب ارملة ان يصل الى تلك الدقة اشتغاله الطويل في ميادين لها اهميتها الرئيسية في سبيل الوصول الى منهج علمي وان لم تكن ذات رهجة . فاني اتكلم عن الفهرست الذي وضعه لمخطوطات دير الشرفة ونرى فيه طول اناة الباحث ذي العلم الواسع (وكنا هنا نود ان يكون ابلغ ضبطاً ، بيد انه لن يقدّر لاحد من المرة الاولى ان يصل الى اتقان احد المناهج) .

واذا لم اتحدث بعد عن الترجمات الكبيرة الاهمية التي عانها الاب ارملة فلأن تاريخ الازمنة لابن العبري الذي نشره على صفحات هذه المجلة كاف ليبين لنا قيمة لغته وصفاء ترجمته . وانا لنستبيح القراء بان نطيل الكلام حول مؤلف يكاد يطيسه الصمت وذلك لكي لا نتكلم عن غيره . فان لغته فيها واضحة عادة، ولكنها تصبح مفعمة برغبته في ان يحاكي النص الاصلي ، وما ذلك الا لانه كان المترجم الماهر الذي كان انشاؤه ينطبق تماماً على فكرة المؤلف وتصوراته .

٥

لقد اردت ان ابين بصورة عامة نفسية ذلك العلامة الذي طواه الردى . ولماذا نبكت في مثل هذا المقام عن المؤلفات التي كان اعدها للطبع ولم يستطع لسبب من الاسباب ان ينشرها . فثمة اثنا عشر مؤلفاً وكلها ذات قيمة، من بينها تاريخ الدول الارامية السريانية وتاريخ الكنيسة السريانية واخر على القداس وغيرها كتب اخرى لها اهميتها ولا مجال لذكرها هنا .

ويشوقني ان المع فقط الى غزارة معارفه في اللغة السريانية والخدمات التي استطاع ان يسديها بسبب ذلك لانه لم يكن يفوته منها سر من اسرارها وكان يحب ان يجد آثارها في اللغات الاخرى او في المؤلفات الدينية المدونة باللغة العربية .

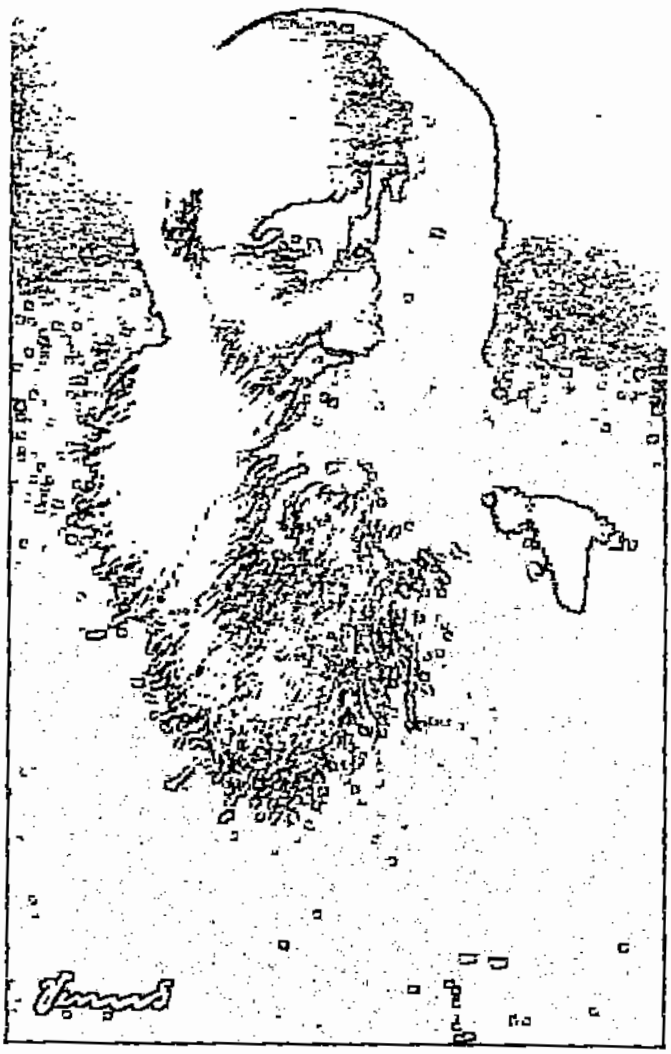

الأب اسكو ارملة السرياني

١٩٤٤ - ١٨٧٩

ولقد تمكن من الوصول الى بيان التأثير العريق في القدم وهو التأثير الذي احدثته هذه اللغة في تكوين اللغة العربية وتكوين المفكرين الدينيين والفلاسفة الذين كتبوا بالعربية .

٥

ليس بمقدوري ان اختم حديثي هذا بدون ان أرويَ هنا حادثة شخصية . فقد وضع الاب ارملة كتابه بصدد القديس افرام ورفعه بواسطة سيادة المطران حيقاري الى الحبر الاعظم الذي تلقى منه كلمة تقريظ بليغة على مزايا تنظيم الكتاب وعلم المؤلف الذين دلّ عليهما. ولقد جئته بعد ذلك طالباً اليه مقالاً حول عقيدة الحبل بلا دنس عند الطائفة السريانية فبشّ لي مرتاحاً فشكرته فقال لي فوراً : من واجبي انا ان اشكرك لانك افسحت امامي المجال لاتكلم على العذراء. كلاماً لن ارى اعذب منه على قلبي لذلك ستكون مقالتي هذه خير ما استطعت ان اكتبه طوال ايام حياتي لاني اكتبها لتمجيد امي العذراء. فانا اتمنى ان اودع هذا المقال كل محبتي البنوية لمريم .

ولقد كان ذلك العلّامة مسيحياً حقيقياً وكاهناً بالكمال. ما لهذه الكلمة من معنى . واذا كان صحيحاً ان الكثير من العلم يدنينا من الله والقليل منه يبعدنا عنه فيسعنا القول اذاً ان الاب ارملة قد لقي بعلمه الغزير طريقاً الى الله الذي اراد ان يخدمه طوال ايام حياته .

التآليف التي وفقته العناية الربانية ان ينشرها بالطبع وهذه لائحتها :

١ رغبة الاحداث : في جزئين .
٢ الزهرة الزكية في البطريركية السريانية الانطاكية .
٣ ازجمة في تنفيذ « كلمة انتقادية » .
٤ ادبار ماردن القديمة ودير مار افرام .
٥ سياحة في طور عبدين سنة ١٩١٣ .
٦ التذكار المئيني لوفاة السيد اغناطيوس انطون سحيري .
٧ الفصاري في نكبات النصارى .
٨ طرفة من اخبار دير الشرفة .
٩ اليونان وكتبة السريان .
١٠ الاصول الابتدائية في نحو اللغة السريانية في جزئين .
١١ سلسلة بطاركة السريان الانطاكيين .
١٢ ابناء الرفقان في جثالقة المشرق ومقارنة السريان .
١٣ بحث تاريخي عن السريان في القطر المصري .
١٤ القنصلية الفرنساوية والطائفة السريانية في بغداد
١٥ الحروب الصليبية في الاثار السريانية .
١٦ رسائل بركيلو وبرشفاتو وداود بين ربان « في السريانية » .

١٧ سلوى الراندين في امثال ماردين .
١٨ التكريمات المريمية في الكنيسة السريانية .
١٩ لمحة في المنظومات والاغاني السريانية .
٢٠ لوعة القاصي والداني على البطريرك اغناطيوس افرام رحماني .
٢١ البطريرك الجديد – مار اغناطيوس جبرائيل الاول تبوني .
٢٢ فرنسيس شيحا واخبار امرته السريانية .
٢٣ السريان في قبرس .
٢٤ الرئاسة البابوية في الكنيسة السريانية .
٢٥ الرتب الكهنوتية في الطائفتين المارونية والسريانية .
٢٦ خراب ايلون (معرب عن السريانية) .
٢٧ الرهبنة البندكتية في فلسطين .
٢٨ اجمل زهرة في حديقة ال « عبرا » .
٢٩ رحلة المونسنيور فرنسيس بيطط الى بلاد ارمينيا والعجم .
٣٠ الملك اللبناني الامير بشير الشهابي الثاني .
٣١ وثائق خطية في علاقة ال طرازي بالملة السريانية .
٣٢ فهرس مخطوطات دير الشرفة .
٣٣ الملكيون – بطاركتهم الانطاكية .
٣٤ القرى السريانية في لبنان وسوريا والخليل .
٣٥ اثار فرنسا ومآثرها في لبنان وسوريا .
٣٦ مار يعقوب السروجي الملفان – بحث انتقادي تاريخي ديني .
٣٧ نصارى غسان والسريان .
٣٨ اسرة ال طرازي .
٣٩ تاريخ دير سيدة النجاة اي دير الشرفة .
٤٠ خلاصة اخبار القديس يوحنا بسكو .
٤١ خادم الرب الامين الخوري افرام احمر دقنه .
٤٢ ترجمة ابن العبري تاريخ الكنيسة .
٤٣ مار افرام السرياني .
٤٤ تنقيح وطبع الكتاب المقدس بالنيابة عن مطران جبنان قلبان .
٤٥ الحق منضبة .
٤٦ الطوباوي دومنيك سافيو .
٤٧ تاريخ ابن العبري (المشرق) .
٤٨ ترجمة الاناجيل (الاربعة) عن (الفشيطة) نسختين .
٤٩ مار افرام السرياني ملفان الكنيسة الجامعة .
٥٠ مقال عن العذراء في المشرق .

ولقبهم الوطنية والعنصرية

الكتب التي صنّفها ولم يتيسّر له نشرها بالطبع :

١ تاريخ الدول الارامية السريانية في نحو ٥٠٠ صفحة .
٢ تاريخ الكنيسة السريانية .
٣ القداس السرياني في ٣٠٠ صفحة .
٤ كتاب ضخم بالغرائب للعذراء وبعض زيارات الغربان .
٥ ترجمة حسامات الصوم الاربعيني واسبوع الالام .
٦ مختصر اخبار العهد العتيق في السريانية (مصوّر) .
٧ حقائق تاريخية عن اسرة شيحا السريانية .
٨ لمحة تاريخية عن اسرة هندي الحلبية .
٩ عقد اللآل في شجرة آل قتّال .
١٠ ال ابرهيمشاه في التاريخ .
١١ سير القديس بوليان الشيخ صاحب الغربان
١٢ عقد اللآل في شجرة ال كفوري .

هذا عدا مقالات نشرها في مجلة المشرق وفي البشير وفي مجلة الآثار الشرقية مجلة الحب والسلام ورسالة العمال ورسالة قلب يسوع الاقدس الخ.